من معهد الاسكندرية
إلى جامعة فاروق الأول

للأستاذ محمد محمد المـــدنى

أيتها الجامعة الناشئة :

سلام الله ورحمته وبركاته عليك ، وهنيئاً لك هذا البدء السعيد لحياة أرجو أن تكون طويلة مباركة حافلة بالعمل والنشاط والإنتاج إن شاء الله !

أتدرين ممن تَلَقَّيْنَ هذا الكتاب ؟ إنه من أخ لك لم تلده أمك الشابة الحسناء ، المشرفة على ضفاف النيل بالجيزة الفيحاء ، ولكن ولده عمك أو جدك « الأزهر » ! ذلك الشيخ العجوز الرابض تحت سفح المقطم منذ ألف عام ... أريد أن أهنئك من قلب مخلص صادق لم يداخله الحسد ، ولم يكدره التعصب ، بما تلقينه من عناية بك ، واهتمام بأمرك ... ثم أشكو إليك ما أتجرَّع أنا من غصص الضعف ، وما أذوق من ذل الغربة وويل الشتات[1] !

أنت الآن — أيتها الأخت — فى فترة من الزمان تغبطين عليها : لم تبتدئى بعدُ عامك الدراسى الأول ، وأرى الدنيا عليك مقبلة ، والأيام عنك راضية ، والدولة إليك دائلة !

أنت كالعروس المدللة الأثيرة عند أهلها : يُعدون لها ، ويتطلعون إلى يوم جلوتها ، ولا يدخرون وسعاً فى سبيل إرضائها ، وتهيئة الحياة السعيدة المترفة الناعمة لها ... وأهلك أغنياء كرماء قد عرفوا الحياة وأدركوا أسرارها ، ومُرِّنوا على السير فيها بخطوات ثابتة جريئة متوالية ، حتى احتلوا المكان الأول ، ونالوا الحظ الأوفر ، وتركوا الخاملين المتخلفين من ورائهم ، يكادون يتميزون غيظاً ويموتون غمًّا !

هذه وزارة المعارف كثيرة الحركة دائبة النشاط : قد حشدت قواها ، وعبأت رجالها : تجتمع لجانها ، وتنعقد مجالسها ، وتكتب تقاريرها ، وتؤلف فيها الهيئات الفنية وغير الفنية ، ويسهر وزيرها ، ويدأب فى السعى مستشارها ، وتشتغل الصحف والمجلات ودار الإذاعة بأمرها ... وكل ذلك من أجلك أنت — أيتها الأخت — السعيدة ! ومن قبل شغل المجلسان فى دار الندوة بهذا الأمر : تقبلاه بقبول حسن ، وأقراه فى مثل لمح البصر ، وأوسعا له فى البذل والعطاء ، ولم يضنا عليه بالحرّ من المال ، والعالى من المناصب ، والرفيع من الدرجات ... فاسعدى — يا أُختُ — بهذا العطف ، واهنئى بهذه الرعاية ، واستمتعى بمجد آلك ، واستطيلى فخراً بأسمائهم ، واستظلى مما عقدوه عليك بلواء من الأمن والطمأنينة والرضا ، واسلكى سبل العلم ، ومناهج البحث ، ذُللاً لا أشواك فيها ، ولا عقاب تعترض من دونها !

سيرى يا أختاه بجنان ثابت ونفس مطمئنة وصدر لم تفسده الوساوس ، ولم تحوم حوله الشكوك ، فقد وفتك الدولة حقك ، وكفتك ما يهمك ، وجعلتك فى يمنى يديها حين جعلت غيرك فى يسارها ومن وراء ظهرها !

معاذ الله — أيتها الأخت الناشئة — أن أتطاول إلى مثل مقامك ، أو أمنى النفس بمثل منزلتك ، فإنما أنا معهد ثانوى صغير لا يزيد على هذه المدارس الكثيرة التى تعمل فى خدمتك ، والتى ستمدك كما مدَّت أمك الرءوم من قبل بالبنين والبنات ؛ ولست قريباً لك ولا نِدًّا لخطابك ، ولكنى أشاركك فقط فى معنى واحد ، به أكتب إليك وبه أجترئ عليك : أنا معهد الإسكندرية وأنت جامعة الإسكندرية ، ولقد كنت مثلك يوم نشأتُ منذ ثلاثين عاماً : كنت معهداً من المعاهد العليا عنيت به الدولة يومئذ كما تعنى بكِ الآن ، واحتفلت به الأمة كما تحتفل بك الآن ، وأسندت إدارته إلى رجل عبقرى حازم لم تزل آراؤه وإصلاحاته وهمته ونشاطه مسك الأحاديث وعطر المجالس ، هو المغفور له الشيخ محمد شاكر ، وقال الناس عنى كلاماً كثيراً ، قالوا : هـذا معهد الإسكندرية عاصمة مصر الثانية ، هذا هو « أزهر » الدولة المحمدية العلوية سينافس أزهر الدولة

---

(١) معهد الأسكندرية مقيم بدمنهور بسبب الغارات على الأسكندرية ، وقد أدمج القسم الثانوى منه فى معهد طنطا .

الفاطمية ، وقد حققت بى الأيام بعض هذا الظن ، فكنت نموذجاً فى أساتذتى ، وكنت نموذجا فى طلابى ، وكنت نموذجا فى دراساتى ونظامى ، وخرجت رجالاً أئمة يكادون يستأثرون بالفضل فى كل ناحية من نواحى الأزهر الحاضر : فى العلم ، فى الخلق ، فى الإدارة ، فى الحزم ، فى الشجاعة ، ولكن الزمان صدمنى مرتين : فأما إحداهما فيوم بدا لرجال الأزهر أن يجعلونى معهداً كمعاهد الأقاليم فأصبحت معهداً ثانويًا كمعاهد طنطا وشبين وقنا ، أُعد أبنائى ، وأجدّ فى تعليمهم وتثقيفهم وتهذيبهم وتقويم أخلاقهم ؛ حتى إذا سويتهم فتيان علم وعمل وخلق كريم دفعت بهم إلى الأزهر فغرقوا فى لجته وضلوا فى تيهه . والأزهر كما ينبئ عنه التاريخ قوة خارقة غلابة تحيل الأشياء ولا تحيلها الأشياء : كم من رجال تأبّوْا عليه ثم خضعوا له من حيث لا يشعرون ، وأرادوا له صيداً فكانوا هم المصيدين ! وكم من علوم لم تهضمه ولكنه هضمها ، ورامت منه فأخضعها وأذلها ! وكم من أخلاق فيه تبدلت وملكات ثابتة تأرجحت ! فماذا عليهم لو تركونى كما أنشأونى معهداً عالياً نموذجيًا ولم تمتد أيديهم إلىّ ، إذن لكنت اليوم جديراً أن أكون قريناً لك بل منافساً شريفاً يحاول أن يسبقك فى ميادين العلم والبحث والإنتاج !

وأما صدمتى الأخرى فقد أصابتنى قريباً ، وكانت صدمة عنيفة زلزلت مكانى ، وقوضت أركانى ، وشطرتنى شطرين رمت بأحدهما إلى عاصمة الغربية فزجت به معهد طنطا ، واحتفظت بأيسر الشطرين فى دمنهور فأقامته فى « كُتّاب » لجمعية تحفيظ القرآن ثم قالوا عن هذا « الكُتّاب » وأنا أكاد أذوب خجلاً : هذا معهد الأسكندرية !

لقد أنزلوك على الرحب والسعة إحدى دورهم الفسيحة الأرجاء العالية البناء ، ولن تمضى عليك بضع سنوات حتى تكون لك مدينة جامعية فى رمل الأسكندرية تشرق على بحر الروم كما تشرق مدينة الجامعة الأولى على نهر النيل ، أما أنا فقد قضيت حياتى فى مكانين متباعدين فى مدينة الأسكندرية شمالاً وغرباً : أحدهما زقاق غير نافذ من أزقة السيالة تكتنف البيوت فيه دارى ، ويعلو للباعة المتجولين فى كل صباح ضجيج من حولى ؛ والآخر دار بنوها ، وكأنما كان مهندسها ينظر فى ضمير الغيب إلى ما حدث الآن[1] فبناها على نظام ثكنات الجيوش . نعم بنوها ، ولكن فى أى مكان ؟ فى « القبارى » موطن المصانع ومستودعات البترول و « مغالق » الخشب ، ومخازن السكك الحديدية وطريق الأسكندرية كلها إلى « السلخانة » ومدابغ الجلود !

« وفكر » الأستاذ الأكبر الراغى فى أن يبنى لى داراً تليق بمكانتى ، فأمر رجاله أن يرودوا الأسكندرية وضواحيها مكاناً مكاناً فرادوها ، وقيل للناس إنهم قد انتخبوا مكاناً فيها ، ثم انتهى الأمر بالمشروع إلى هذا الحد فكُتبت فيه تقريرات أضيفت إلى سجل التقريرات عن سائر المشروعات !

وليتنى بقيت فى الأسكندرية حيث كنت ، ولكنهم حفظهم الله قد خافوا الغارات ، وقذائف الطيارات ، ففروا بى من قضاء الله إلى قضاء الله . فهذه هى الصدمة الأخيرة التى حدثتك يا أخت عنها ، فإذا بدا لك أن تسأليني : كيف جاز لمعهد أزهرى أن يفر من الأسكندرية قبل أن تفر مدارسها الابتدائية بل مدارسها الإلزامية ورياض أطفالها ، فإنى أجيبك على البداهة بأن لنا معاشر الأزهريين فلسفة خاصة فى القضاء والقدر والصبر على النوازل والثبات للشدائد ؛ فلسفة تقضى علينا أن ننصح الناس بالرضا عن ذلك كله ، واحتمال ذلك كله وننسى أنفسنا ، وأن نبالغ فى نهى الناس عن الجزع والفزع ثم نخالفهم إلى ما نهاهم عنه ! وقد يكون فى الأمر سر آخر لا أعلمه ولا أعتقد بأنك حريصة على أن تعلميه ، وربما علمه فضيلة شيخى الجليل الناشط الأستاذ الشيخ أبى العيون . وبهذه المناسبة أذكر لك أن هذا الشيخ الناشط لا يباشر عمله فى إدارتى الآن منذ عام أو يزيد ، لأن الأزهر رأى أن ينتفع بنشاطه فى منصب من مناصب التفتيش « فى إدارته العامة » فيا لله لمعهد قسمه الثانوى فى طنطا وقسمه الابتدائى فى دمنهور ، وشيخه ومدير إدارته فى القاهرة بين المفتشين !

أيتها الأخت السعيدة : هنيئاً لك ، وعزاء لى .

أخوك

معهد الأسكندرية

« بطرف » جمعية المحافظة على القرآن الكريم بدمنهور

(طبق الأصل)

محمد محمد المدنى

المدرس بكلية العربية

(١) تحتل القوات العسكرية الآن بناء المعهد بالقبارى .